الفصل السادس

صير المتوكل للوحوش وبرميزل

١ — تمهيد

ما كاد المتوكل يفرغ من مشروع « قناة سامراء » ويتم المنشئات الملحقة به حتى وجّه نشاط عمله الى السهل الجميل، الذي يقع بين القاطول الأعلى الكسروي وبين نهر القائم شرقي سامراء ، وهو السهل الذي كان قد انشأ الرشيد فيه قصره في موضع المشرحات[1]. وقد ارتأى المتوكل أن يستغل هذا السهل الواسع فينشيء فيه حديقة شاسعة للحيوانات لتكون من جملة منتزهات عاصمته ، ولما كان تحقيق مثل هذا المشروع يتوقف على توفر المياه السيحية حيث تساعد على نمو الاشجار والازهار ، حاول في بادىء الأمر أن يستغل « قناة سامراء » لايصال المياه الى الحير الذي اعتزم انشاءه في منطقة القاطول، فمد قناته هذه الى « المطيرة » ومنها الى الجنوب باتجاه موضع الحير ، وسار بها الى مسافة بضعة كيلومترات بموازاة الضفة اليسرى لنهر القائم ، إلا أنه عدل عن ذلك بعد ان تبينت له صعوبة ايصال المياه الى هذا الموضع بواسطة القناة فاوقف العمل فيها . ويمكن تتبع آثار القناة بكهريزيها ، وهي تمتد في الجانب الشرقي من نهر القائم الى قرب القادسية ، حيث يشاهد الحد الذي توقفت فيه القناة هناك . ونميل الى الاعتقاد بأن الذي حمل المتوكل على توقفه عن اتمام هذا العمل هو أن موقع الحير فضلاً عن وقوعه في مكان بعيد جداً عن صدر القناة الرئيسية ، الذي يستمد المياه من دجلة من فوق « الدور » مما يجعل تموين المياه الدائمة الى الحير مشكوكاً فيه ،

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن هذا القصر في ص ٢٣٩ ـ ٢٤١ .

ان مياه القناة لا تحقق ارواء كل أراضي الحير بل تقتصر على قسم قليل جداً منه ، وهو القسم الواقع في أقصى الجنوب قرب « المشرحات » . لذلك عمد الى اعادة احياء نهر القادسية القديم ، الذي يتفرع من الضفة اليمنى للقاطول الأعلى الكسروي ، عند الكيلومتر (٣٠) منه وينتهي الى « حصن القادسية » ، وهو النهر الذي يخترق السهل الذي اعتزم المتوكل انشاء الحير فيه[1] ، الا انه وجد صدر هذا النهر مندرساً كما ارتأى الخبراء بان النهر لا يؤمن ارواء أراضي الحير كلها في موسم الصيهود ما لم يقام ناظم قاطعي على القاطول الاعلى الكسروي ، ليتسنى حجز المياه أمام الناظم ورفع مناسيبها لتسليطها على اكبر مساحة ممكنة من السهل موضوع البحث. ولا يخفى ان نهر القادسية الاصلي الذي كانت تقتصر مهمته على ايصال المياه الى « حصن القادسية » لم يكن ليحتاج الى هذا الناظم لأن أراضي القادسية التي يقع فيها الحصن واطئة بالنسبة الى السهل الشمالي الذي على الجانب الشرقي من نهر القائم . ونستدل من تتبعاتنا ودراساتنا لهذه المنطقة أن المتوكل نفذ ما اقترحه عليه الخبراء في هذا الشأن وبذلك حقق مشروع الحير الذي كان يصبوا اليه .

اما المشروع الذي انشأه المتوكل لتحقيق ما تقدم فيشتمل أولاً على نهر يبدأ من القاطول الاعلى الكسروي فيسير جنوباً مخترقاً السهل الذي يمتد بين القاطول الاعلى الكسروي وبين نهر القائم، وهو السهل الذي انشيء فيه حير الوحوش ، ثم ينتهي بـ « المشرحات » (موضع قصر الرشيد القديم) في بركة جميلة تعدّ من ابدع اعمال المتوكل في سامراء لما تخللته من تنسيق فني ، وتنظيم هندسي ؛ فكانت آية في الابداع والابتكار . هذه هي البركة المشهورة التي وصفها البحتري في قصيدته الغناء ومطلعها « يا من رأى البركة الحسناء رويتها » وسيأتي البحث عنها فيما بعد . وقد انشيء أمام البركة من الجنوب قصر ضخم

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن هذا النهر في ص ١٥٢ و ٢٤١ و ٢٤٩ ـ ٢٥٠

يستدل من أنقاضه وبقايا سوره على انه كان من جملة قصور المتوكل المهمة . وقد اشتمل المشروع أيضاً على انشاء ناظم على مجرى القاطول الكسروي لتأمين رفع مناسيب المياه عند مدخل النهر ، الذي يتفرع من أمام الناظم ويخترق أرض الحديقة .

٢ ـ مشروع الناظم على القاطول الاعلى الكسروي

أما الناظم الذي انشيء على مجرى القاطول الاعلى الكسروي فيقع عند الكيلومتر (٣٠) من المجرى المذكور وهو يتألف من أربع فتحات ولا تزال آثار بنائه ماثلة للعيان يمكن مشاهدتها في الموضع المسمى « فكة أبي سعيد » الذي يقع مقابل مدينة سامراء الحالية تماماً . ومما يدل على ان انشاء هذا الناظم يرجع الى العهد العربي ، هو ان نهر القاطول حوّل في هذا الموضع من مجراه الاصلي ليتسنى بناء الناظم على المجرى الجديد في اليابسة . وهكذا نشاهد آثاراً لمجريين في هذا الموضع يقع الواحد الى جانب الآخر ، المجرى الاصلي القديم ثم المجرى الجديد على الجانب الأيسر منه وهو المجرى الذي انشيء الناظم فيه في اليابسة ، وقد حوّلت المياه اليه بعد الانتهاء من انشاء الناظم عليه (راجع الرسم رقم ١٢). وهذه هي الطريقة المتبعة في اكثر الحالات في انشاء مثل هذه المشاريع ، وأحسن مثال لذلك مشروع قناطر الهندية ، الذي انشيء على الفرات على هذا الشكل أيضاً ، ويلاحظ ان ابن سرابيون اطلق على هذا الناظم اسم « الشاذروان » فذكر ان القاطول الكسروي بعد ان يجتاز القصر الجعفري وقنطرة الرصاصي[1] « يمر الى الاياخية ثم يمر الى الشاذروان » ، ومعنى الشاذروان الناظم أو السد الغاطس الذي تحجز امامه المياه بغية رفع مناسيبها وتسليطها على الجداول الفرعية .

وتدل المستويات على ان منسوب قعر القاطول في الموضع الذي انشيء فيه

(١) راجع البحث الذي تقدم عن « القصر الجعفري » في صفحة ١٣٣ والبحث عن « قنطرة الرصاصي » في ص ١٥٥ و ٢٠٥ .

الناظم يبلغ ٦٣٫٦٠ متراً فوق سطح البحر ، فاذا فرضنا ان عمق الماء في القاطول كان يصل الى حد مترين، وان الناظم صمم على أساس رفع منسوب المياه الى متر

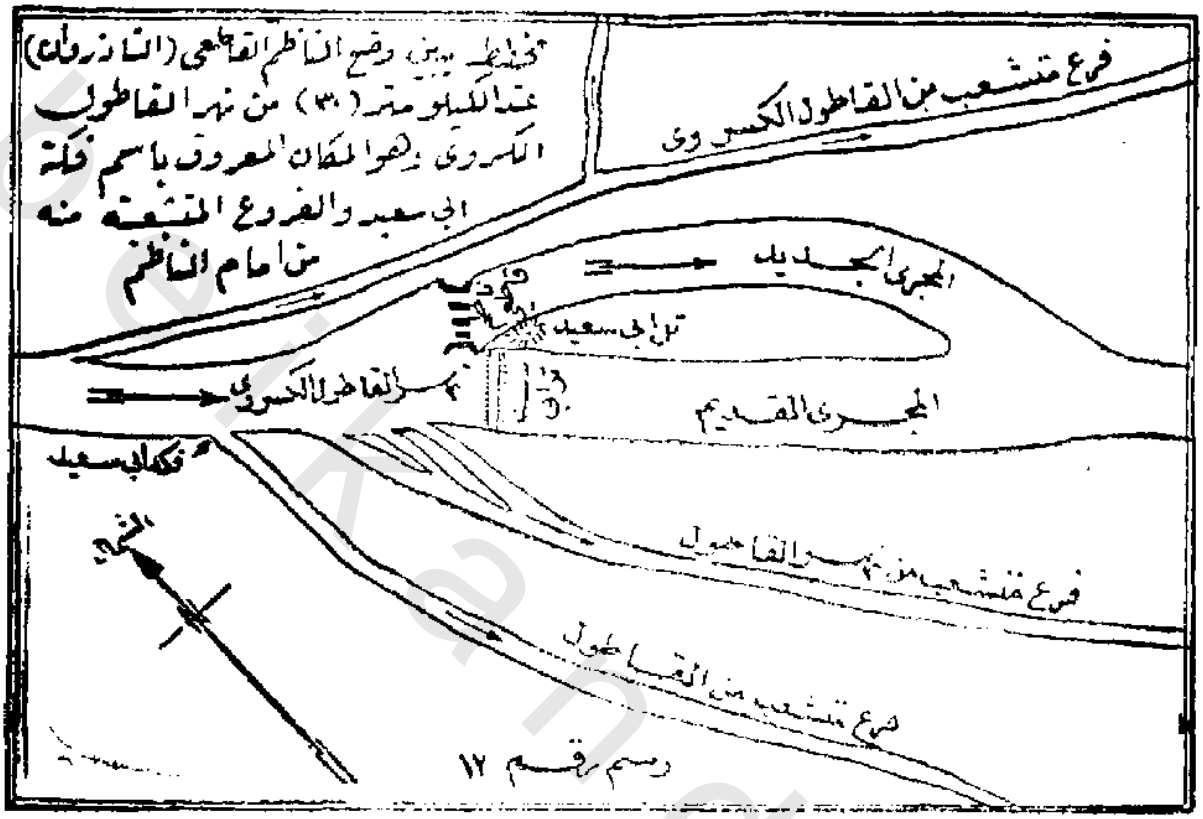

رسم رقم ١٢

واحد فوق ذلك ، فيصبح المنسوب الذي كان في القاطول في هذا الموضع اكثر من ٦٦ متراً . اما أراضي الحير التي بين القاطول الأعلى الكسروي ونهر القائم فتتموّجه، إلا انها تنحدر بهبوط مستمر نحو الجنوب الشرقي، فتبدأ في منسوب حوالي ٦٥ متراً وتهبط الى حد ٥٦ متراً تقريباً في الحد الشرقي للحير ، ذلك مما كان يساعد على تسلط مياه القاطول على معظم هذه الاراضي وارواء الحير سيحاً. أما منسوب الاراضي التي يقع فيها القصر والبركة فيبلغ حوالي ٦٣ الى ٦٤ متراً.

٣ ـ مشروع « نهر نيزك »

وهناك ما يدل على أن النهر الذي حفره المتوكل أمام الناظم لارواء حديقة الحيوانات سمي باسم « نهر نيزك » ، وقد جاءت هذه التسمية في عدة مناسبات في قصائد البحتري ، كما جاء ذكر النهر بهذا الاسم أيضاً فيما رواه الطبري في

حادثة مقتل بغا الشرابي ، فقال انه لما بلغ بغا ان المعتز دبّر أمر قتله واتفق مع بايكباك وأهل الكرخ وأهل الدور خرج في غلمانه وهم زهاء خمسمائة ومثلهم من ولده واصحابه وقواده وصار الى « نهر نيزك » ثم تنقل الى مواضع حتى قتل[1] . ويتفرع نهر نيزك من ضفة مجرى القاطول الكسروي اليمنى في نقطة تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من صدره ، فيسير أولاً مسافة حوالي كيلومترين موازياً الضفة اليمنى للقاطول الكسروي ثم ينحرف فيسير باتجاه الجنوب مسافة أحد عشر كيلومتراً تقريباً حتى يصل بئر العجم ، وبعد أن يترك بئر العجم على يساره يستمر في الاتجاه الجنوبي مسافة ثلاثة كيلومترات ونصف الكيلومتر حتى ينتهي الى « البركة الجعفرية » الواقعة شمالي القصر الذي في « المشرحات » . ويسمي الاهلون اليوم آثار هذا النهر باسم « خيط عبد الصالح » (راجع الرسم رقم ١٣ « خارطة حير المتوكل للوحوش ») .

٤ ـ « نهر نيزك » وقواطيل ابن سرابيون الثلاث

ولنهر نيزك اهمية خاصة، فهو أول نهر يتفرع من القاطول الكسروي في قسمه الأعلى وبذلك فهو اقرب فروع القاطول الى مدينة «سرّ من رأى» ، وعلى هذا الأساس فهو يلقي ضوءه على بعض الامور الغامضة فيما يتعلق بالمنشئات التي تأسست في ضواحي «سرّ من رأى» من جهة الشرق والجنوب، حيث كان يتفرع من نهر نيزك عدة تفرعات من ضفته الغربية وهذه تتجه الى الجنوب الغربي نحو أراضي « المطيرة » و « بركوارا » فتموّن هذه المنطقة بالمياه . ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن ابن سرابيون توهم فذكر ان هناك ثلاثة قواطيل تأخذ المياه من نهر دجلة من أسفل «سرّ من رأى» بفرسخين بين «المطيرة» و «بركوارا» وهذه تنصب في القاطول الاعلى الكسروي ، وقد سمي الاول من الشمال « اليهودي »

---

(١) راجع الطبري ٣ : ١٦٩٥

وعليه « قنطرة وصيف » وسمّي الثاني وهو الاوسط « المأموني » ، اما الثالث فسماه « أبا الجند » ووصفه بأنه « اجلّها وأعمرها شاطئاً يمر بين ضياع وقرى ويتفرع منه انهار تسقي الضياع التي على شاطيء دجلة الشرقي ويصب اكثرها الى دجلة » . ولا شك في ان قاطول أبي الجند، الذي يشير اليه ابن سرابيون، ويصفه بأنه أكبر القواطيل الثلاثة هو القاطول الاسفل (قاطول الرشيد أو مجرى القائم) الذي ذكره المؤرخون العرب، والذي تقدم البحث عنه . أما القاطولان الآخران فلم يرد ذكرهما في أي مصدر آخر عدا « تقويم البلدان » لأبي الفداء ، ولا شك في ان رواية أبي الفداء مستقاة من كتاب ابن سرابيون إذ نلاحظ بأن النص الذي ورد في كتاب ابن سرابيون نقل حرفياً . وذلك لا يتفق مع الواقع لأن طبيعة الأرض هناك لا تساعد على فتح مجرى من نهر دجلة في هذا المكان ثم صبه الى القاطول الكسروي الأعلى، بدليل ان الأراضي في هذه المنطقة تنحدر من القاطول الأعلى وهي تهبط في مستواها كلما اقتربت من نهر دجلة حتى تنتهي الى اخفض نقطة عند نهر دجلة . ولعل هذان القاطولان اللذان يشير اليهما ابن سرابيون ماهما إلا فرعان من « نهر نيزك » كانا يمتدان الى غربي حديقة المتوكل للحيوانات ثم يدخلان الى منطقة « المطيرة » و « بركوارا » وبعد ذلك يصبان في دجلة هناك . ومما يدل على أن أحد هذين الفرعين كان يمر بـ « المطيرة » ان القنطرة التي انشئت هناك سميت باسم « قنطرة وصيف » نسبة الى وصيف وهو الذي انتقل الى « المطيرة » في عهد الواثق[1] . وهذا دليل أيضاً على أن هذا الفرع فتح في زمن المتوكل عند انشاء مشروع « نهر نيزك » فسميت القنطرة التي عليه باسم وصيف الذي كان يسكن في المطيرة في ذلك الوقت . وقد أشار الشابشتي الى دير بأسم « دير مرمار » (سماه ياقوت مرماري) يقع عند قنطرة وصيف هذه فقال انه « دير عامر كثير الرهبان ، حوله كروم وشجر ، وهو من مواضع

---

(١) راجع البحث المتقدم الخاص بـ « المطيرة » ص ٥٨ و ٥٩ ـ ٦١ و ٦٥ ـ ٦٦

النزهة والبقاع البلبية الحسنة» . وفيه انشد الفضل بن العباس بن المأمون قائلاً :

انضيت في سر من را خيل لذاتي ... ونلت فيها هوى نفسي وحاجاتي
عمّرت فيها بقاع اللهو منغمساً ... في القصف ما بين انهار وجنات
بدير مرمار إذ نحي الصبوح به ... ونعمل الكاس فيه بالعشيات
فكم به من غزال شادن لبق ... يصيدنا بالاّلحاظ البابليّات[1]

ولا شك في ان الانهار التي كانت تروي البساتين هناك كانت تستمد مياهها من القاطول الاعلى الكسروي آنذاك[2] .

٥ ـ حير الحيوانات

لنبحث الآن في كل من اعمال المتوكل المتصلة بمشروع « نهر نيزك » فنبدأ أولاً بـ « حير الحيوانات» : تقع هذه الحديقة، كما يتضح من الخارطة المرفقة ، (راجع الرسم رقم ١٣) خارج مدينه «سرّ من رأى» ومشتملاتها من جهة الشرق بين القاطولين ، القاطول الأعلى الكسروي وبين القاطول الأسفل (نهر القائم) ، وهي مسوّرة بسور من الطين يحيط بها من جميع اطرافها . ويستدل من آثار هذا السور على ان الحديقة كانت مستطيلة الشكل تمتد ضلعاها الجانبيتان باتجاه الشمال ، أما الضلعان الاخريان فان الضلع الشمالية التي تمتد من الغرب الى الشرق تتصل بكل من الضلعين الجانبيتين في ركنيها بزاوية قائمة . اما الضلع الجنوبية فتنحرف قليلاً باتجاه الجنوب الشرقي فتسير على محاذاة نهر القاطول الاسفل (مجرى القائم) على مسافة ٦٥٠ متراً تقريباً من ضفته اليسرى ، وتتصل الضلع الاخيرة هذه بالقصر الذي بالمشرحات حيث يقع في منتصف هذه الضلع تماماً .

---

(١) انظر « مسالك الابصار في ممالك الامصار» الجزء الاول (طبعة مصر) ص٢٨٢ـ ٢٨٣ .

(٢) راجع البحث المتقدم الخاص برأي هرزفلد في قواطيل ابن سرابيون الثلاثة المذكورة في ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤

ويبلغ طول الضلع الغربية لسور ستة كيلومترات ونصف كيلومتر تقريباً وطول الضلع الشرقية حوالي تسعة كيلومترات ونصف كيلومتر . أما طول الضلعين الاخريين فان طول الضلع الشمالية، التي تتصل بكل من الضلعين الجانبيتين بزاوية قائمة، يبلغ زهاء ستة كيلومترات ونصف كيلومتر وطول الضلع الجنوبية المنحرفة سبعة كيلومترات تقريباً ، وبذلك يبلغ مجموع طول محيط الحديقة حوالي ثلاثين كيلومتراً ، اما مساحتها فتبلغ حوالي ثلاث وخمسين كيلو متراً مربعاً ، أي واحد وعشرين الف دونم عراقي (مشارة) تقريباً .

ويمكن تتبع آثار سور الحديقة على طول اضلاعه الاربع، عدا بعض اقسامه التي اخترقتها المزارع الحديثة والآبار التي حفرت في تلك المنطقة ومكائن الضخ التي نصبت هناك في السنوات الأخيرة ، أما زوايا السور الاربع فواضحة المعالم، جليلة الآثار، ويسمي الاهلون الزاوية باسم « الطابية » . وتتصل الضلع الغربية لسور الحديقة بسور مدينة « سرّ من رأى » الخارجي ، عند الركن الجنوبي الغربي لسور الحديقة، فيتكوّن بذلك مثلث قاعدته سور مدينة «سرّ من رأى» الخارجي الذي يمتد من الزاوية الجنوبية الغربية للحديقة الى « قصر بركوارا » ومن ثم الى « جامع الملوية» ، وهو على الارجح السور الذي اطلق عليه اليعقوبي اسم « حائر الحير »[1] ، وضلعه الشرقية السور الغربي لحديقة الحيوانات . اما ضلعه الغربية فتتكوّن من المسافة التي تمتد من جامع الملوية حتى الركن الشمالي الغربي لسور الحديقة، ويبلغ طول الخط الأخير حوالي ستة كيلو مترات ، وبضمن هذه المسافة تقع ساحة الحير التي مرّ ذكرها فيما تقدم[2] . اما طول السور الخارجي لمدينة «سرّ من رأى» أي قاعدة المثلث فيبلغ حوالي أحد عشر كيلومتراً.

وقد أيد المؤرخون العرب وجود هذه الحديقة خارج مدينة «سر من رأى»

---

(١) راجع البحث الذي تقدم الخاص بـ « حائر الحير » في ص ١٠٦ ـ ١٠٨

(٢) راجع البحث الذي تقدم الخاص بـ « ساحة الحير » في صفحة ١١٦

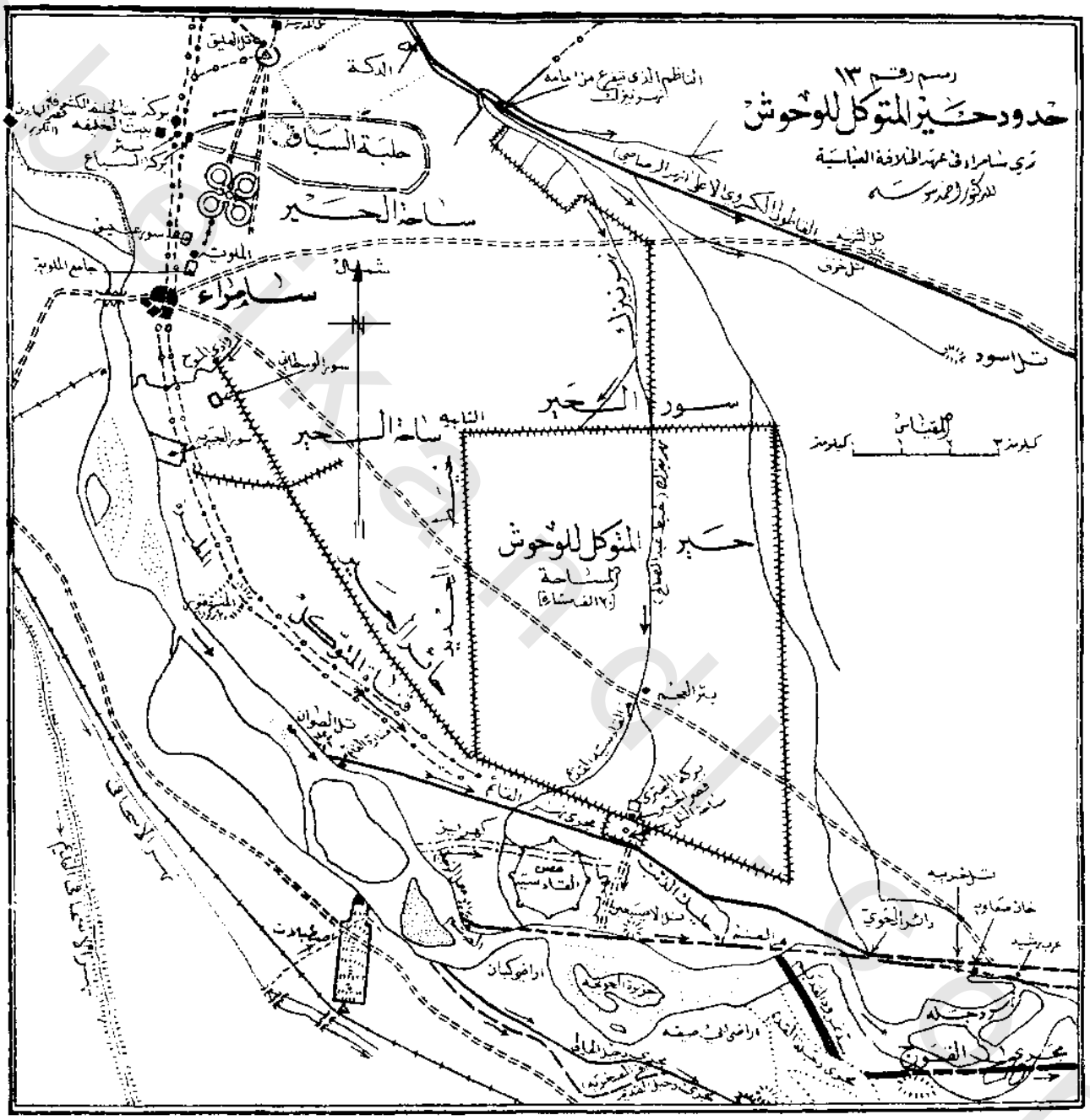
رسم رقم ١٣
حدود حير المتوكل للوحوش
في سامراء في عهد الخلافة العباسية
للدكتور احمد سوسه
حلبة السباق
ساحة الحير
سامراء
سور الحير
حير المتوكل للوحوش
المساحة
(١٧ الف دونم)
المقياس
تل اسود
الدكة
الملوية
جامع الملوية
بئر العنم
تل العوان
نهر دجلة
شمال

خلف السور الخارجي للمدينة ، كما ابدوا في رواياتهم وجود بقعة فسيحة من الارض في شرقي المدينة ، بين الحديقة وحدود المدينة الخارجية ، وكانت تعرف هذه البقعة باسم « ساحة الحير » نسبة الى حير الحيوانات الواقع شرقي المدينة . ويظهر انه كلما توسع العمران الى جهة الشرق وامتد الى هذه البقعة ، قلع السور الخارجي القديم وبني سور آخر خلف العمران الجديد . أما الحائط الذي بني في زمن المعتصم فكان يسمى بـ « حائر الحير » ، وهذا على ما نعتقد تغيّر في زمن المتوكل فامتد الى الشرق حتى صار في الحد الذي تمتد اليه آثار السور الخارجي الحالي الذي يمتد من موقع الملوية متجها الى الجنوب الشرقي حتى يتصل بالركن الجنوبي لسور حديقة الحيوانات ، وهو السور المعروف اليوم باسم « سور البطاوي » ، وان اتصال هذا السور بالزاوية الغربية الجنوبية لسور حير الحيوانات أكبر دليل على ان حير الحيوانات كان يؤلف جزءاً من منشئات المتوكل التي امتدت الى خارج مدينة «سرّ من رأى» شرقاً .

وكانت الشوارع التي تقع على الحدود الشرقية من المدينة تسمى «شوارع الحير»، منها «شارع الحير الجديد» الذي فتحه المتوكل[1] . وقد جاء فيما ذكره اليعقوبي ما يؤيد أنه كان للحديقة سور يحيط بها من كل اطرافها ، وأن الحديقة تقع في ساحة واسعة خلف سور المدينة ، وإليك ما كتبه في هذا الصدد قال:ـ « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبني خلفه حائط غيره وخلف الحائط الوحش من الضباء والحمر الوحش والايايل والارانب والنعام وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة . »

ويلاحظ أن هرزفلد قد اعتبر في خارطته التي رسمها لمدينة سامراء، وفيما كتبه عن سامراء أن حديقة الحيوانات موضوعة البحث تقع في شمال جامع الملوية قريب

---

(١) راجع البحث الذي تقدم عن شوارع مدينة سر من رأى والتوسع الذي اجري في زمن المتوكل على الحدود الشرقية للمدينة ابي ص ١٠٥ ـ ١٠٦

تل العليق. وهذا لا يتفق، ليس مع الآثار الحالية التي أشرنا اليها حسب، ولكنه لا يتفق مع ما دوّنه المؤرخون في هذا الصدد ايضاً كما يتضح مما تقدم ذكره. ويظهر من مجرى الحوادث أنه كان هناك حير في حدود مدينة «سر من رأى» الخارجية على عهد المعتصم وهذا كان سبب تسمية أحد شوارع المدينة في ذلك العهد بأسم « شارع الحير الاول » ، وقد أشار الى هذا الحير وإلى الخيل التي فيه محمود بن الحسن الورّاق ، وهو شاعر مشهور كانت وفاته في خلافة المعتصم في حدود سنة ٢٣٠هـ ، قال : « كنت جالساً بطرف الحير حير سر من رأى ومعي جماعة ننظر الى الخيل فمر بنا ابو تمام فجلس الينا » [١].

وكان في قصر الحير في سورية ، وهو القصر التأريخي المعروف ، حديقة حيوانات من نوع حير المتوكل للوحوش المبحوث عنه أعلاه ، ويبلغ طول هذه الحديقة حوالي تسعة كيلومترات وعرضها كيلومتراً ونصف كيلومتر، محصنة بسور من كل اطرافها ، على نحو ما هو عليه حير المتوكل . ولعل القصر سمي بقصر الحير لوجود الحير الى جانب القصر [٢]. وقد ظن بعض المؤرخين أن البقعة المسوّرة الى جانب قصر الحير المذكور كانت تشكل بحيرة اصطناعية تابعة للقصر إلا أن المستر كريسويل (K. A. C. Creswell) يؤيد بأن المكان كان بدون شك حيراً للوحوش وانه كان قد أنشأه الخليفة هشام ليتصيد فيه وقد انشيء السور لحصر الوحوش داخله [٣].

ومما يدل على أن الساحة التي تقع فيها حديقة المتوكل للحيوانات كانت تسمى بالحير، وانها كانت الى جانب القاطول، وصف البحتري لحديقة الحيوانات في شعره،

---

(١) راجع كتاب « أخبار أبي تمام » لأبي بكر الصولي ص ١٤٧ .

(٢) حول قصر الحير هذا وسوره المذكور ، راجع مجلة سوريا الفرنسية Syrie الجزء الثامن ص ٣٠٢ — ٣٢٩ .

(٣) راجع مجلة سوريا أيضاً الجزء الثامن عشر سنة ١٩٣٧ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

فقد سماها بالحير أي بمعنى الحديقة أو البستان،فقال وهو يخاطب المتوكل مشيراً الى حيوانات الحديقة :

يرعن منك الى وجه يرين له ... جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت ... بالحير في عرصة فسح نواحيها

ومما يؤيد قول البحتري أن حديقة حيوانات المتوكل هـذه كانت تدعى بالحير انه جاء ذكر حديقة حيوانات في مدينة بغداد الشرقية بأسم الحير أيضاً ، إذ ذكر ابن مسكويه في كتابه « تجارب الأمم» أن بعض جند المقتدر (٢٩٥— ٣٠٨هـ. = ٩٠٨ — ٩٣٢م .) شق عصا الطاعة فنهب قصر الثريا وذبح الوحش الذي في الحير ، وإليك ما كتبه في هـذا الصدد قال : « وفي سنة ٣١٥ هـ . شغب الفرسان برسم التفاريق وخرجوا الى المصلى فنهبوا القصر المعروف بالثريا وذبحوا الوحش الذي في الحير وذبحوا البقر التي لأهل القرى التي حوله وخرج اليهم مونس وضمن لهم ارزاقهم فرجعوا الى منازلهم . » وقد جاء ذكر هذا الحير ايضاً لمناسبة وصف الاماكن التي ادخل اليهـا رسل صاحب الروم قبل وصولهم الى حضرة الخليفة المقتدر بالله ، إذ ورد في « مقدمة تاريخ بغداد » للخطيب (ص ٥٣) انه بعد أن ادخل الرسل الى الدار المعروفة بخان الخيل التي فيهـا خمسمائة فرس « ادخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش وكان في هذه الدار من اصناف الوحش التي اخرجت اليها من الحير قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من ايديهم ثم اخرجوا الى دار فيهـا اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي على كل فيل ثمنية نفر من السند والزراقين بالنار فهال الرسل أمرها ثم اخرجوا الى دار فيها مائة سبع خمسون يمنة وخمسون يسرة كل سبع منها في يد سياع وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد[1]. »

---

(١) يستدل مما ذكره المؤرخون أن حير الوحش هذا هو من أعمال المأمون (١٩٨ — ٢١٨هـ . = ٨١٣ — ٨٣٢م .) حيث جاء في معجم ياقوت أن الحير كان قد انشيء من قبل المأمون قبل توليه الخلافة ، وقد أنشأ بجواره ميداناً لركض الخيل واللعب =

ولعلّ الوحش الذي في هذا الحير هو من جملة الوحش الذي نقل من حير «سرّ من رأى» الى حير بغداد، وذلك بعد أن تم ارجاع مقر العاصمة الى مدينة السلام في عهد المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) .

٦ ـ حير الحيوانات حسب وصف البحتري

ويستفاد من أشعار البحتري الكثيرة ان عدد الحيوانات ، التي كانت في الحير الذي انشأه المتوكل ، يقدر بألفي وحش ، وفي ذلك قال وهو يخاطب المتوكل :

الفان وافت على قدر مسارعة ... الى قبول الذي حاولته فيها

كما يستدل من هذه الاشعار انه كان في الحير عدد من السباع ، ونحن ننقل هنا بعض ما أنشده في وصف مبارزة الفتح ابن خاقان للأسد ، وهو في احمته ، وسط الاشجار المشتبكة على نهر نيزك قال :

وقد جرّبوا بالأمس منك عزيمة ... فضات بها السيف الحسام المجرّبا
غداة لقيت الليث والليث مُخدر ... يجدّد نابا للقاه ومخلبا
يحصنه من نهر نيزك معقل ... منيع تساقى روضه وتأشّبا
يرود مغاراً بالظواهر مكتباً ... ويختلّ روضاً بالاباطح معشبا
يلاعب فيه أقحوانا مفضّضاً ... يبصّ وحوذانا على الماء مذهبا

= بالصوالجة وقد ألحق الميدان والحير بالقصر المعروف بالجعفري وهو القصر الذي بناه جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك قبل أن أوقع الرشيد بالبرامكة ، ثم سمي هذا القصر بالمأموني ثم الحسيني عند ما وهبه المأمون الى عمه حسن بن سهل وذلك بعد أن تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، واليك ما كتبه ياقوت في مادة «الناج» قال : « وكان قصر الجعفري أحب المواضع الى المأمون وأشهاها لديه واقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيراً لجميع الوحوش وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية وأجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى وابتنى منه قريباً منه منازل برسم خاصته وأصحابه سميت المأمونية » .

اذا شاء غادى عانة أو غدا على ... عقائل سرب إن تنقّص ربربا
يجرّ الى أشباله كل شارق ... عبيطاً مدمّى أو رميلاً مخضّبا

ومما يؤيد وجود السباع في جير المتوكل ، ما ذكره المسعودي عن قتلها على عهد المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ . = ٨٦٩ ـ ٨٧٠ م) ، وهذا نصه : « وقد كان المهتدي بالله ذهب في أمره الى القصد والدين فقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمّهم ببرّه وكان يقول يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبدالعزيز فأكون فيكم مثل عمر بن عبدالعزيز في بني أمية وقلل في اللباس والفرش وأمر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد الى الصور التي كانت في المجالس فحيت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين أيدي الخلفاء والديوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته[1] » .

وأخيراً فاننا نكرر انشاد أبيات البحتري ، التي يصف بها حديقة الحيوانات ونهر نيزك ، وهو يخاطب المتوكل : ـ

وطاعة الوحش اذا جاءتك من خرق ... أحوى وأدمانة كحل ما قيها
كالكاعب الرّود يخفي في ترائبها ... ردع العبير ويبدو في تراقيها
ألفان واقت على قدر مسارعة ... الى قبول الذي حاولته فيها
ان سرت سارت وان وقفتها وقفت ... صوراً اليك بالحاظ تواليها
يرعين منك الى وجه يرين له ... جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت ... بالخير في عرصة فسح نواحيها

نهر نيزك ورد من مواردها ... وساحة التل مغنى من مغانيها
لولا الذي عرفته فيك يومئذ ... لما اطاعك وسط البيد عاصيها
فضلان حزتهما دون الملوك ولم ... تظهر بنيلها كبراً ولا تيها

(١) راجع الجزء الثامن ص ١٩ ـ ٢٠

وقال البحتري وهو يرثي المتوكل بعد مقتله : ـ

محلّ على القاطول اخلق دائره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
كأن الصبا توفي نذوراً اذا انبرت ... تراوحه اذيالها وتباكره
وربّ زمان ناعم تم عهده ... ترق حواشيه ويورق ناضره

.....

ولم أنس وحش القصر[1] اذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه الرحيل فهتكت ... على عجل استاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به ... أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهامها ... وبهجتها والعيش غضّ مكاسره

فنستخلص من كل ما تقدم ان الحير المذكور كان يضم عدداً كبيراً من الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية ، وكانت هذه الضواري في الاقفاص ، وضمن الجدران الداخلية، وكان قسم آخر منها، وهو القسم الاكبر،طليقاً وسط الحير الواسع، وكانت مساحة الحير من السعة بحيث يسهل معها الصيد والقنص .

٧ ـ قصر المتوكل في الحير

ومن أهم ما يلفت النظر ان الحير الذي تقدم وصفه لم يكن حديقة حيوانات: ولا كان مكاناً للصيد والقنص حسب ، وانما كان موضعاً لتنزهات الخليفة ولأنسه أيضاً ، لاننا نجد في الحد الجنوبي من الحديقة آثار قصر واسع مستطيل الشكل يقع في منتصف الضلع الجنوبية لسور الحديقة من الداخل ، ويبلغ عرضه الذي يمتد مع السور ١٢٥ متراً وطوله الذي يمتد الى الشمال في داخل السور ١٦٥ متراً ، أي بمساحة حوالي ٢٠٫٠٠٠ متر مربع ، ولعل القصر المذكور انشيء في حير

(١) يقصد بالقصر ، القصر الذي في حديقة الحيوانات ، وهو القصر الذي تقع أمامه البركة الجعفرية وسيأتي البحث عنه فيما يلي .

الحيوانات عملاً بعادة الفرس القدماء الذين كانوا يجعلون حير الوحوش متصلا بالقصر الملكي .

وواجهة هذا القصر مقابلة للشمال، فأمامها بهو مستطيل على شكل دكة بعرض خمسين متراً، يشرف على بركة مربعة واسعة يبلغ طول اضلاعها مئتي متر تقريباً، أي بمساحة حوالي أربعين ألف متر مربع ، وهذه هي البركة الجعفرية التي وصفها البحتري بدون أي شك ، وسنأتي على وصف تقسيماتها الداخلية من سواق ودكات ومقصورات في فصل تال . أما من الجنوب فيوجد خلف القصر ساحة كبيرة مستطيلة مسوّرة بسور من الطين واللبن فتمتد الى حد الضفة اليسرى للقاطول الاسفل (نهر القائم) . وتمتد هذه الساحة مسافة ٦٥٠ متراً في الطول نحو الجنوب حتى تتصل بالضفة اليسرى لنهر القائم ، أما عرضها باتجاه الضلع الجنوبية لسور الحديقة ، فيبلغ حوالي ٩٥٠ متراً ، وبذا تكون مساحتها حوالي ٦٢٠٫٠٠٠ متر مربع . وفي وسط هذه الساحة الجميلة مصطبة اصطناعية تشرف على القاطول الاسفل من جهة، وعلى القصر وحديقة الحيوانات من جهة أخرى ، ولعل « ساحة التل » التي ذكرها البحتري في شعره هي نفس هذه الساحة، وقد سماها «ساحة التل» نسبة للتل الذي يقع في وسطها[1] . وتوجد على كل من جانبي هذه الساحة قطعة مستطيلة من الأرض مسوّرة بسور من الطين أيضاً تمتد على طول الساحة الى مسافة ٦٥٠ متراً ، أما من جهة العرض فتسير موازية الضفة اليسرى لنهر القائم مسافة ١٢٥ متراً تقريباً ، وبذلك تبلغ مساحة كل من هاتين القطعتين حوالي ٨٠٫٠٠٠ متر مربع . وفي هاتين القطعتين آثار أبنية منتشرة على طولها لعلها كانت من جملة الأبنية التي أعدّت لرجال حاشية القصر وللقائمين بأعمال حديقة الحيوانات (راجع الرسم رقم ١٤) .

---

(١) راجع وصف البحتري لحديقة الحيوانات ونهر نيزك في صفحة ٢٩٦

وقد جاء ذكر القصر نفسه والحير والقاطول في الأبيات التي نظمها الصولي ، وهو يمدح « سرّ من رأى » فأنشد قائلاً : ـ

بسرّ من رأى بلاد الملك طاب لنا ... معرّس عيشه باللهو منظوم
أرض متى اختلست الحاظها نظرا ... اهتاج ذو طرب وارتاح مهموم
والحير والقصر والقاطول جنّتها ... والجعفري بكف الدهر مزموم
منازل آنست دهراً فأوحشها ... ظلم الزمان فثلوم ومهدوم
عفت وغيّرها وصل الرياح لها ... والوصل منها بحبل الهجر محتوم (١)

وذكر البحتري القصر فيما أنشده عن دكتي البركة التي أمام القصر قال :

وأرى الدكتين بينهما اطواف روض كالوشي في الوانه
ذاك قصر مبارك تقصر الاعين دون الرفيع من بنيانه

ومما يدل على ان بناء الحير هو المكان الذي كان المتوكل يأوي اليه في أنسه وطربه انه لما احضر اسحق الموصلي من بغداد الى سامراء ليغنّي في حضرته ، قال أبو عبد الله وهو يعبّر عن تأثير غناء اسحاق في نفوس الحاضرين ، مشيراً في الوقت نفسه الى وجودهم في الحير ما نصه : « فوالله ما بقي غلام من الغلمان الوقوف على الحير إلا وجدته يرقص طرباً وهو لا يعلم بما يفعل فأمر له المتوكل بمائة الف درهم » .

ويظهر ان القصر كان لا يزال موجوداً في أوائل القرن الرابع الهجري حيث ذكره جحظة البرمكي في شعره الذي نظمه في حوالي سنة ٣٢٦ هـ وقال في وصفه:

الأهل الى الغدران والشمس طالعة ... سبيل ونور الخير مجتمع الشمل
ومستشرق للعين تغدو ضباؤه ... صوائد البـاب الرجال بلا نبل
الى شاطيء القاطول بالجانب الذي ... به القصر بين القادسية والنخل (٢)

---

(١) راجع كتاب « الاوراق » للصولي ، الجزء الثاني (ص ١٨١) .
(٢) راجع ما تقدم في صفحة ٢٤٦

٨ ـ قصر المتوكل في الجبر وقصر الرشيد على القاطول

شرحنا فيما تقدم تفاصيل النتائج التي توصلنا اليها فيما يختص بموقع المشرحات، ونرجح للاسباب التي بسطناها آنفاً ان موقع المشرحات هذا هو نفس المكان الذي كان انشأ الرشيد قصره فيه . وقد كان من الطبيعي ان يختار المتوكل هذا المكان لينشيء فيه حديقته الواسعة وقصره الجميل وبركته الحسناء ، لان الوسائل المتوافرة في هذا المكان لم تتوافر في أي مكان آخر من منطقة سامراء لانشاء الحدائق والمتنزهات ، فهو يقع في سهل خصب جميل يحيط به القاطولان من الجانبين ثم يسهل سقيه سيحاً من القاطول الأعلى الكسروي وصرف مياهه الزائدة الى القاطول الاسفل (مجرى القائم) ، الأمر الذي يساعد على انشاء الحدائق والجنائن والبرك فيه بنجاح مضمون . وقد جاء في أقوال الشعراء ما يؤيد ان مكان المشرحات هو نفس المكان الذي كان فيه قصر الرشيد ، ومن جملة هذه الاقوال وصف الحسين بن الضحاك القاطول والقصر الذي فيه وذلك حين كان الواثق يتصيّد بالقاطول قال وهو يخاطب الواثق :

سقى الله بالقاطول مسرح طرفكا ... وحيّى بسقياه منازل قصركا

٩ ـ خرائب القصر والتنقيب فيها

ومن الغريب ان أحداً من الاخصائيين الأثريين والمتتبعين في شؤون سامراء لم يصل الى موضع المشرحات على ما وصل اليه علمنا القليل ، واذا كان قد وصل اليه أحد فانه لم يلاحظ على ما ظهر أهميته بالنسبة الى خطط مدينة سامراء وعمرانها . ومن حسن الحظ ان خرائب القصر الذي تقدمنا بذكره لا يزال معظمها على وضعها الطبيعي لم تمسه يد انسان على ما يظهر خلافاً لما هي عليه الحال في كثير من الخرائب الاخرى التي اقتلع الاهلون معظم آجرها ان لم يكن كلها لاستعماله في بناياتهم وفي إنشاء الآبار المنتشرة في هذه المنطقة ، ولعلّ السبب

في ذلك يرجع الى بعد هذا الموضع عن مدينة سامراء ووقوعه في مكان بعيد عن طرق السير المطروقة .

وكيف كان فاننا نترك أمر التنقيب عن هذا القصر واستكناه بعض حقائقه الى دائرة الآثار وكل ما يهمنا قوله في هذا الصدد ان آثار هذا القصر معاصرة لبركة الجعفري التي تقع امامه من دون أي شك ، أي انها تعود الى عهد المتوكل ويلاحظ ان دائرة الآثار العراقية التي علقت على النتائج التي توصلنا اليها في هذا الشأن ترى بأن القصر كان من عمل المعتصم ، اما سور حير الحيوانات الذي يتصل بالقصر في حدوده الجنوبية فلم تتطرق له ، على حين ان القصر متصل بسور حديقة الحيوانات وليس هناك أي شك في ان منشيء القصر هو الذي انشأ سور الحديقة ، وان البحث الذي تقدم يؤيد لنا بأن القصر والسور انشئا على عهد المتوكل (راجع ما تقدم في ص ٢٦٤ و ٢٦٧) .

١٠ ـ قصرا الصبيح والمليح وقصر المتوكل في الحير

وعلى الرغم من ان هناك بعض دلائل تحملنا على الاعتقاد بأن قصري «الصبيح» و«المليح» ، اللذين انشأهما المتوكل ، يقعان في هذا الموضع ، فاننا لا نود أن نجزم بذلك حتى تقوم دائرة الآثار بتنقيباتها في هذا الموضع لتكشف الستار عن هذا البناء وتنورنا عن دخائله . اما الدلائل المذكورة فهي ان البحتري لما وصف قصري الصبيح والمليح في اشعاره اعتبر موقعهما في نفس الموضع الذي تقع فيه البركة الجعفرية وجدولها ، كما انه ذكر ان قصر الصبيح تم انشاؤه في وقت متأخر حتى صارت هناك دار للسكنى فضلاً عن دار اللهو والانس التي كانت موجودة قبل ذلك ، ذلك مما يدل على ان المليح كان يقتصر على بناء معد للأنس واللهو فقط وقد كان موجوداً قبل الصبيح . ويشير البحتري أيضاً الى ان المكان هو من امكنة الملوك الأوائل ، وعلى هذا فقد يصح أن نفسر ذلك ان قصر المليح هو قصر الرشيد القديم على القاطول ثم جاء المتوكل

فأعاد بناءه وانشأ البركة والحير امامه ثم أضاف اليه قصر الصبيح . ومما يؤيد انه كان قصر ملكي يعود الى ما قبل عهد المتوكل في هذا المكان ما ذكره المؤرخون من ان المهتدي ابن الواثق كان مولده في القاطول .

ومن جملة ما يذكره البحتري ان المتوكل أعد في هذين القصرين مكاناً خاصاً بالصلاة . واليك ما أنشده في قصيدة يمدح بها المتوكل ويصف بها الصبيح والمليح قال : —

واستتم الصبيح في خير وقت ... فهو مغنى انس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو يستطيع ... حيّاه معلناً بالسلام
البسا بهجة وقابل ذا ذاك ... فن ضاحك ومن بسّام
كالمحبين لو أطاقا التقاء ... أفرطا في العناق والالتزام

. . .

مستمد بجدول من عباب الماء ... كالأبيض الصقيل الحسام
واذا ما توسط البركة الحسناء ... ألقت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحر ... يخدع العين وهو ماء غمام

. . .

انّ خير القصور أصبح مزهواً ... بكره المدى لخير الأنام
حاور الجعفري والخاز شبدار[1] ... اليه كالراغب المعتام
حل من منازل الملك كالانجم ... يلمعن في سواد الظلام

. . .

غرف من بناء دين ودنيا ... يوجب الله فيه أجر الامام
شوّقتنا الى الجنان فزدنا ... في اجتناب الذنوب والآثام
وبها تشرب الأوائل ملكا ... وتباهي مكاثري الاسلام

---

(١) « شبدار قصر عظيم من ابنية المتوكل بسر من رأى » (ياقوت) .

ومما ذكره ياقوت في معجمه ان كلفة انشاء قصر المليح بلغت خمسة آلاف ألف درهم ومثل ذلك كانت كلفة انشاء قصر الصبيح .

١١ ـ رأي هرزفلد في قصر المشرحات وفي الحير

ان من جملة الأمور التي طلبت مديرية الآثار العراقية العامة الى الدكتور هرزفلد ، العلامة الالماني ، بيان رأيه فيها موضع المشرحات وكان ذلك على أثر نشرنا لأول مرة بعض المعلومات الجديدة عن ذلك المكان[١] ، فأجاب بكتابه الى المديرية المذكورة بتاريخ ٢٧ تموز سنة ١٩٤٧ بما يلي :—

« ان القصر الذي وصفتموه ومعه البحيرة المنسقة كان اسمه المألوف أثناء وجودي هناك (المشرحات) ، ففي جهته الغربية مباشرة يتصل به جدار ينزل من الشمال ـ أو الشمال الغربي قليلاً ـ وهذا الجدار ينتهي في البناية وفي ضفة الجدول العالية . وهناك في الجهة الشمالية الشرقية تقع ضفاف القناطول الكسروي أيضاً التي تكوّن مع الجدار والجدول حدود ساحات الصيد الواسعة التابعة لحائر الحير . لذلك اني اعتقد بأن بناء المشرحات انشيء خصوصاً لغرض الصيد[٢] » .

---

(١) راجع البحث الذي تقدم حول الموضوع في صفحة ١٦١ .

(٢) وهذا نص كلامه بالانكليزية :—

« The palace you describe as « with ornamental lake » had the popular name al - musharrahat when I was there. Just at its Western side a wall comes down from the north (or slightly northwest) , ending at the building and at the high dam of the canal. The wall & the canal, moreover in the northeast the dams of the Q. al - Kisrawi, form the limits of the enormous hunting grounds of the Hair al - Hair, therefore I believe the musharrahat were especially built for hunting . »

ويظهر مما تقدم انه لم يكن في وسع هرزفلد تتبع آثار سور الحير كلها لانه لم يشر الى غير ضلع واحدة منها وهي الضلع الغربية، ثم يشير الى نهر يسير بموازاة هذا الضلع ، وان هذا النهر هو نهر نيزك المتقدم ذكره والذى ينتهي عند البركة الجعفرية التي امام المشرحات . ويتضح مما تقدم أيضاً ان هرزفلد يؤيد بوجه عام ما ذهبنا اليه حول القصر والحديقة، أي أن القصر متصل بسور الحديقة، إلا انه لم يتتبع تفاصيل الموضوع ، والدليل على ذلك هو ان بعد أن زودناه بنسخة مما نشرناه حول الموضوع أيد لنا في كتابه المرسل الينا بتاريخ ٢٩ آب ١٩٤٧ بأنه يتفق وايانا في كل ما ذهبنا اليه ما عدا رأينا في حصن القادسية فانه كان متردداً في تأييده[1] .

(١) راجع البحث الذي تقدم حول الموضوع في صفحة ٢٦١ .